

التغيير الحضاري في فكر الشيخ محمد سعيد رمضان البوطي

د.عليه صالح

جامعة باتنة - 1

الملخص:

يتناول هذا المقال: التغيير الحضاري في فكر الشيخ محمد سعيد رمضان البوطي، و الذي لا شك، كان له تصوره الخاص لمنهج التغيير مستنبطاً من القرآن الكريم و من الهدي النبوي، حيث تطرق لمسألة التغيير في كثير من مؤلفاته و محاضراته، و أفاض في الحديث عن مفهومه في ضوء علاقة الإنسان بالله، و آليات التغيير وفق منظومة سننية أودعها الله في الكون و الإنسان و الحياة.

Abstract:

This article discusses the civilizational change in the thought of sheikh MOHAMMED SAEED RAMADAN AL- BOUTIK who – certainly- has his vision of change's method driveal from the holy Quran and the prophet's leading . where he touched on this question regarding to his writing and lectures.his concept based on the relationship between man and god , also the mechanisems of change according to the Sunnah system imposed bay god in univers, humain and life.

مقدمة:

لقد ظهرت جهود قيمة لمفكرين، و دعاة، و عاملين في الحقل الإسلامي، بغية النهوض بالمجتمعات الغارقة حتى قفاها في أسن الانحطاط و الانهزام الحضاري، بعد أن ضيعت مهامها في إحقاق الشهود الحضاري الذي دلت عليه أوامر الوحي في قوله تعالى: « وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا »⁽¹⁾، هذا الشهود الذي يستحيل أن يتحقق ما دام المضطلع به يقبع في مؤخر الصف. كما تكاثفت تلك الجهود للإجابة على سؤال التجديد الرائد: ما سر تخلف المسلمين؟⁽²⁾، و لماذا تقدم غيرنا و تأخرنا نحن؟ مع أننا نحوز على مادة التجديد و هو الإسلام؟. و ما هي سبل التغيير و إحياء الأمة لتعود إلى سابق أمجادها و لنصلها بماضيها المشرق؟..و كان من هؤلاء العلماء و المفكرين: جمال الدين الأفغاني، محمد عبده، و محمد إقبال، و مالك بن نبي، و محمد الغزالي، و محمد سعيد رمضان البوطي...و غيرهم كثير، و مع أن توجهات هؤلاء العلماء و رؤاهم للتغيير الحضاري اختلفت، إلا أنهم اجتمعوا على غاية وهدف واحد هو أمر هذه الأمة، و ضرورة انبعاثها من جديد.

و لأن موضوعا بهذه الأهمية إذ يكشف أطروحات مناهج التغيير و البناء في صرح الحياة الإسلامية، يجيء دور هذه الورقة البحثية ؛ لتفصح عن طرح لمنهج من مناهج التغيير، عند عالم فذ من علماء الإسلام و مفكره، وهو: الشيخ محمد سعيد رمضان البوطي⁽³⁾ كأنموذج لتعرف على موقع مسألة التغيير في فكر البوطي، أو بعبارة أخرى رؤيته - رحمه الله- للتغيير؟ وكيف يعرفه؟ و كيف يجب أن يكون التغيير في منظوره؟ و ما هي الآليات و الكيفيات التي يتم بها صناعة الحضارة و انبعاثها من جديد؟، و لهذا فإن هذه الدراسة - المتواضعة - ستعالج الموضوع من خلال هذين المطلبين:

1- المقصود بالتخلف والتغيير عند الشيخ محمد سعيد رمضان البوطي.

2- التغيير الحضاري، مقتضياته، و مرتكزاته عند الشيخ محمد سعيد رمضان البوطي.

المطلب الأول: المقصود بالتخلف والتغيير عند البوطي

المتضمن في مؤلفات البوطي يحده يرصد حالة التخلف التي نعيشها، محاولا أن يسلط الضوء على أسبابه، و كان قصده في ذلك أمران:

- تبرئة الدين الإسلامي مما يلصق به، بأنه سبب التخلف الدين الإسلامي كما يدعي أصحاب الأيديولوجيات العلمانية و الحداثية.
- التأكيد على حتمية الإسلام في عملية الانبعاث الحضاري.

الفرع الأول: مفهوم التخلف و أسبابه عند البوطي

أولا- مفهوم التخلف:

يعرف البوطي التخلف بقوله: «.. و التخلف كلمة، تشمل كل مظاهر الضعف أو الجهل أو الفقر في حياة الأمة. فهي إذا تنحط على تفرق المسلمين و تدابرهم، و على إستيلا ب اليهود و غيرهم لأراضيهم، و على جمود الحركة العلمية في حياتهم، و على قعودهم عن تسخير ما في الأرض لمعاشهم»⁽⁴⁾

فهذا التعريف الذي طرحه البوطي، تضمن معاني التخلف الذي تعاني منه الأمة، ووضح العقبات التي تحد مسيرة الحضارة و جعلها تتعثر عندها ثم تراوح مكانها، و لا تجاوزها، فتتركها في حيرة بين الرجوع إلى ماضيها و التمسك به أو مواصلة المسير مشتتة الوسيلة و الغاية. هذا ما يفهم من تعريف البوطي خاصة و أنه صور تخلف المسلمين بدقة، فوضح كيف أنه أتى على كل مقومات البناء الحضاري. فالضعف يفسر على عجز في لملمة الوحدة المتشظية، و كذا العجز في وسائل المكافحة و المجابهة للوافد من الاستعمار بنوعيه العسكري و الثقافي، و الفقر عائق صلب في مسيرة النهضة، فالبطون الجائعة و المجتمع المتشرد لا يستطيع أن يبني حضارة، و لا يستطيع أن يعين على نماء في الحركة العلمية و في تطوير المجتمع الإسلامي لعلومه و تفتحته على النافع و الجاد من علوم و فنون غيره.

ثانيا - أسباب التخلف:

يعدد البوطي أسباب تخلف الأمة، و تداعياتها في تآكل بنيان الحضارة، و هي في نظره كما يلي:

- 1- فقد الاستقرار النفسي و الفكري، و التثبيت بأحلام الماضي التليد، مع الركود التام الذي لا يحرك ساكنا.
- 2- العيش تحت رحمة مركب النقص لمدة طويلة، والانبهار بمنجزات الغير المتقدم، دون السعي الجاد و التفكير في العودة إلى الدين و إحيائه - اللهم بعض الحركات الإصلاحية - لا إصلاحه (5).
- 3- ظهور الصراع الفكري بين التيارات المتشعبة بالماضي من جهة، و بين الرفض للماضي باعتباره تراثا، و المتمسكة بكل جديد ولو على حساب الدين و القيم، و بين هذا و ذاك حدثت الخلخلة في العقلية و النفسية الإسلامية، و تفشت مظاهر ذلك الصراع في مناهج التربية والتعليم، و في منابر الإرشاد و التوجيه، وهلم جرّا باقي المناصب.
- 4- غياب التخطيط المستوعب، وفق منهج متكامل للنشاطات الفكرية، والاجتماعية، و الاقتصادية، ذلك أن « عملية التطور الاجتماعي العام . وقضايا التنمية جزء منها . لا تتحقق إلا بعون منسجم متكافئ من سائر الجهود الفكرية والاجتماعية والاقتصادية، فإذا بدا أي تشاكس بين بعض هذه النشاطات، واستفحل قبل القضاء عليه، اتجه من ذلك عامل سلبي، يزداد أثره اتساعاً مع امتداده وتوغله في المجتمع، كما تزداد المساحة اتساعاً بين ضلعين لزاوية منفرجة».
- 5- فقد الثقة بين قطاعات الأمة، محكومين و حكاما، بل إلى حد انعدام التفاعل و التعاون بين الأطراف و الفئات الاجتماعية، و هذا له دور كبير في عرقلة السبيل إلى التطور و الرقي، و لهذا فإن ما كانت دعامته مكونة من جهود طرف واحد فلن يكتب له النفع العام و المستمر (6).

هذه الأسباب و غيرها، هي التي تحدد حجم الأزمة الحضارية كما يتصورها البوطي، و من خلالها نستطيع أن نفهم إسهاماته في جدوى التغيير بالنظر إلى الحلول التي اقترحها لعلاج هذه المشكلات التي نعاني منها.

الفرع الثاني: مفهوم التغيير (7) عند الشيخ البوطي

يعرف البوطي - رحمه الله - التغيير وفق منظومة سننية كونية، كما يقرن التغيير بالفكرة القرآنية عن التغيير و التبديل، التي هي فطرة الله التي فطر الناس عليها، والتي لا تخضع للتبديل أو التحويل، مهما تقادمت الحياة البشرية، أو تطورت، فالسنن الإلهية هي الناموس الذي يسير على ضوئه الإنسان، و قد ورد في كتاب الله، ما يلفت إلى كون التغيير نافذ في الخلق، و أن إرادة التغيير أيضا لها شروطها و سننها، و من الآيات التي تشير لهذا المعنى الذي سقناه:

قول الله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ» (8)

و قوله عز وجل : « ذَلِكْ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ »⁽⁹⁾.

و يفسر البوطي هذه الآية ليحيلنا إلى مفهوم التغيير كما فهمه من الآية القرآنية، فيقول: «إن هذا النص القرآني الجامع يقول: لن يرفع الله حالة أمة أو جماعة من وهدة التخلف و الضياع، حتى تسمو بنفسها و ذاتيتها إلى مستوى التركيبة النفسية و الخلق الرشيد، و لن يهوي بأمة أو جماعة من صعيد الأمن و القوة و رغد العيش إلى وهدة الشقاء و الضياع، حتى تتدنى بنفسها إلى هاوية الفساد و الأخلاق الذميمة»⁽¹⁰⁾.

فهذه الآية القرآنية تضمنت سنة إلهية نافذة في الكون ، وأن التغيير مصدره ذاتي داخلي، و ما لم يتغير المجتمع في أخلاقه و تعاملاته، و يشحن طاقاته العقلية و الفكرية بالمعاني الإيمانية و المقاصد الربانية، فإنه سيبقى في مؤخر الركب، وهذه قاعدة و معيار ثابت ينطبق على كل الأزمان و الأمكنة، مهما بدا لنا من تغير البيئات و الأفراد و المجتمعات المتعاقبة. فقيام الحضارات و أفولها محكوم بمدى نفاذ سنة التغيير. كما نفهم من مفهوم التغيير عند البوطي، كيف أنه بين أن عملية التغيير تكون بالإيجاب كما تكون بالسلب، وأن المتحكم في ذلك هو ميولات النفس و عنفوانها، و مدى التحكم فيها تربية و شحذا.

هذا هو ما يقصده البوطي من كون التغيير المنشود الذي يبتغى منه الإصلاح، و إعادة الريادة الحضارية، يكون بالوعي العميق لسنن التغيير في الكون، و التفعيل الصائب لمكونات الحياة لتؤدي دورها الحضاري المطلوب، و هو يصرح بهذا حين يذهب إلى أن : « كلا من ظاهرتي الإقدام و الإحجام، أو التقدم و التخلف، في تاريخ المسلمين بدءا من بعثة الرسول إلى يومنا هذا، إنما

تم تحت سلطان هذه السنة الإلهية القائلة: «إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ»⁽¹¹⁾

إذن فالتغيير عند البوطي يهتم، أو يتعلق بثلاث مقومات:

1. الفهم الجيد للدين في أصوله ، و مقاصده الكبرى الماثلة في القرآن و السنة.
2. الفقه الحقيقي للسنن الكونية.
3. فهم النفس البشرية، و سبر أغوارها، و معرفة الحالات التي تتقلب فيها بين الاطمئنان، و التيه ، و التملل، و غيرها من الانفعالات، إما مكتسبة أو فطرية غريزية.

المطلب الثاني: التغيير الحضاري، مقوماته و مرتكزاته عند البوطي:

عندما يتكلم البوطي عن التغيير فإنه يتحدث عنه بصفة شمولية، مجملة، باعتبار أن مناحي الحياة متكاملة و متشابكة، ذلك أن التغيير الحقيقي هو الذي إذا مس جانباً احتاج إلى أن تنقاد وراءه باقي الجوانب، و لهذا فإن نظرتة للتغيير الحضاري، يفهم منها ضمناً ، نظرتة لباقي الجوانب.

الفرع الأول: مفهوم الحضارة عند البوطي

لقد اهتم الشيخ محمد سعيد رمضان البوطي بموضوع الحضارة، و بما يكتب في هذا الشأن، خاصة مؤلفات مالك بن نبي كشروط النهضة مثلا، فتعجبه طريقة مالك بن نبي في تحليل الحضارة و سبل النهوض عندما يدرسها وفق الفكرة الدينية⁽¹²⁾، و وفق سنن التغيير القرآني. كما يهتم البوطي أيضا بفكر محمد إقبال الذي يقترب كثيرا من فكر مالك بن نبي، الذي يحض على التربية الإيمانية مع مراعاة الجوانب المستجدة في الحضارة الغربية و مواكبتها، دون الذوبان في أتونها، أي أن عملية المواكبة تتم بدقة و غرلة النافع من السيء و الضار. كما يتوافق طرح البوطي للتجديد مع ما عالجتته مدرسة عبد السلام يسين في رؤيتها للتجديد - باعتبارهما يشتركان في الخلفية الصوفية و التربوية - مع فارق واحد هو رؤية الموقف السياسي و الموقف من النظام الحاكم، فقد دخلت مدرسة عبد السلام يسين السياسة كجماعة معارضة (العدل و الإحسان) و تمازجت مبادئها بين إحقاق العدل الاجتماعي في الدولة و بين الإحسان الذي هو مرتبة في التزكية و الرقي النفسي و الوجداني، أما البوطي فنظرته للسياسة و الأحزاب و التنظيمات فمعروفة و هي الرفض القاطع لتسييس الإسلام⁽¹³⁾، و يعرف البوطي الحضارة وفق سياقين:

أولا - السياق اللغوي:

يجمل البوطي تعريف الحضارة لغويا بأنها: « مدار الحضارة على الجهود التي يبذلها الإنسان في نطاق انتقاله من حياة البداوة و بساطتها، إلى حياة العمران و تعقيدها (...) و الحضارة تزداد اتساعا و عمقا، كلما ازدادت بأصحابها بعدا عن طبيعة البداوة و مستلزماتها، و إغالا في المجتمع العمراني، و تفاعلا مع آثاره و نتائجه »⁽¹⁴⁾.

ثانيا - السياق الاصطلاحي:

للوطي رؤيته الخاصة في تعريفه للحضارة، فهو يعرفها وظيفيا ، أي حسب عناصرها و أدوار كل عنصر منها، و تحليليا أي على حسب فلسفة كل عنصر و ماهيته، فيعرفها بأنها: « ثمرات الجهد الذي يبذله الإنسان، لاستغلال المكونات التي من حوله، في سبيل تحقيق مقومات المجتمع الإنساني، و بث أسباب الخير و السعادة فيه »⁽¹⁵⁾.

فالحضارة حسب البوطي هي الاستخدامات المثلى للمسخرات التي يجدها الإنسان حوله من قدرات و طاقات، كما أن اضطلاعها بتفعيلها و تحريكها ليولد بها مقومات الحياة الراقية وفق منظومة قيمية و فكرية تمكن له أسباب النضج و الرفاهية، و الترف الحضاري.

و يقدم البوطي تعريف الحضارة على أساس تحليلي، فيركب معادلة الحضارة من عناصرها، التي تمثل الحقائق الإسلامية الثلاث: الإنسان، الحياة، و الكون، أي وفق المعادلة التالية: الحضارة = الإنسان + الحياة + الكون، و هذه العناصر يجب أن تعمل في تكاتف و تكامل ، و أن يشملها التغيير وفق السنن الإلهية الماثلة فيها. على أن يكون عنصر الإنسان هو العنصر الفاعل فيها لأنه مزود بالعقل و البصيرة التي بواسطتها ينمي أفكاره و يطورها... و هو ما يعرف بعملية البناء الحضاري.

ثانيا - تعقيبات البوطي على تعريفات العلماء للحضارة:

هناك الكثير من المفكرين و الباحثين الذين حاولوا وضع مفهوم منضبط للحضارة، و هذه المساعي كانت في الفكر الإسلامي (ابن خلدون، و مالك بن نبي كنموذجين)، كما كانت في الفكر الغربي (شبنجلر و توينبي، و غيرهم). لكن الأمر الذي يدعونا للتوقف باعتبارنا نملك دليلا حضاريا هو المنهج القرني، هو تعريف الفيلسوف (أوزفالد شبنجلر) للحضارة، على أنها كائن من كائنات التاريخ و بالتالي فإنها تخضع لقانون الطبيعة، وهو أن لها دورة حياة؛ ميلاد ثم أوج و قوة، ثم ذبول و موت⁽¹⁶⁾.

يعيب البوطي على المفكرين المسلمين، و قد درسوا القرآن، و توغلوا في مفاهيمه، و عرفوا نواميسه، أن ينظروا إلى الحضارة كما نظر إليها الفيلسوف " شبنجلر" - و قد عرضنا تعريفه للحضارة آنفا -، فيقول البوطي مفرعا: «...فأي عذر لهم أن يحبسوا أنفسهم (تقليدا لأعدائهم) من حديث الحضارة الإسلامية في تلك البحوث الوصفية الميتة؟.. ثم أي عذر لهم في أن يبحثوا عن موجبات قيام صرحهم الحضاري الأغر، ثم عن أسباب انهياره و تحوله إلى أطلال، فلا يجدوا أمامهم إلا آراء أمثال توينبي و شبنجلر»⁽¹⁷⁾.

فيخطئ البوطي ما توصل إليه هذين المفكرين من أن الحضارة، لها دورة حياة، ميلاد، شباب، و موت، كما يعتبر أن ما فهمه الباحثون من أن كلام ابن خلدون عندما قال أن الحضارة غاية العمران ونهاية لعمره وأنها مؤذنة بفساده مطابق لهذا الطرح، فهم عليل، و الأصح أن الحضارة إذا لم تجد مقوماتها، تهزم و تشيخ، و تنتقل إلى مكان لآخر توفرت فيه جوها الملائم⁽¹⁸⁾.

إن هذا التعقيب يدل صراحة على أصالة فكر البوطي، كما يعبر عن رؤيته لدراسة التغيير الحضاري، من خلال ما هو مبثوث في القرآن، من حلول و مناهج في سبيل ذلك، و لهذا فهو يرى أن أمثال هؤلاء المفكرين، لم يحلوا شيئا من قضية الأزمة الحضارية بقدر ما زادوا بلاء على الأمة - على حد تعبيره - ومشكلة على الثقافة الإسلامية عند اعتمادهم على التفسيرات الغربية الوضعية، إلا أنه - رحمه الله - يستثني من هؤلاء الباحثين، مالك بن نبي - رحمه الله -، بل و يعتبره الوحيد الذي بحث في الحضارة الإسلامية عن طريق النش في جذورها و ربط صلة الحضارة بنفوس مريديها. ومع هذا يعتبر البوطي أن ما ذهب إليه مالك بن نبي في معادلته عن الحضارة: الحضارة = إنسان + تراب + وقت مع الفكرة الدينية التي تجمعها جميعا، أمرا يحتاج إلى الدقة عند الحديث عن الحدود و الدلالات، فهو حتى و إن كان يقصد بالتراب الأرض، فهذا لا بد له من توسيع أكبر، فلا بد أن يكون التراب يعبر عن الكون، ولا يتحيز في تصور ضيق. كما ينقده في التعبير بالزمن و الوقت، بدلا عن لفظة الحياة لأنها أشمل و أفسح. و غير بعيد عن مالك بن نبي، ينقد الشيخ البوطي ما ذهب إليه الشيخ أبو الأعلى المودودي في تعريفه للحضارة، في كتابه: " الحضارة الإسلامية أسسها و مبادئها"، حين اعتبر الحضارة مجموعة من المبادئ و العقائد و الأفكار و الأصول التربوية التي تثمر لونا من الحياة الاجتماعية بمقوماتها المختلفة. ووجه الخلل في هذا التعريف: أنه يجعل الحضارة متصلة بالأفراد تزول بزوالهم، لا متصلة بالأرض و المكان، و هذا التعريف حسب البوطي، لا يتوافق مع شيء من نظريات علم الاجتماع و مصطلحاته⁽¹⁹⁾.

الفرع الثاني - مقتضيات التغيير الحضاري عند البوطي:

لقد استشعر الشيخ البوطي حجم أزمة التخلف التي تعاني منها الأمة الإسلامية، فبادر على غرار غيره من مفكري و علماء النهضة، للنش في جذور هذه الأزمة، و قد توصل إلى أن مشكلة المسلم مشكلة حضارية، شارك في إيجادها عدة عوامل و مسببات، و لهذا بادر إلى إخضاع الأزمة إلى التمهيص و التحليل، فيرى البوطي أن البناء الحضاري يجب أن يكون منطلقاً من مقومات صلبة، هذه المقومات بينها القرآن الكريم الذي هو خطاب الله للبشر و الإنسانية جمعاء. و منها يتم بناء الحضارة من جديد، وسنحاول اقتضاها فيما يلي :

أولاً - تحقيق الإنسان لعبوديته لله تعالى:

و يكون بتطبيق أوامر الله التي تحقق له الخير و السعادة، و من ذلك أداء الوظيفة الأولى التي كلف بها، و هي الاستخلاف و عمارة الأرض بمعناها الشامل، و من ذلك إقامة مجتمع إنساني مسلم، و إشادة حضارة إنسانية شاملة، ليكون بذلك الإنسان مظهراً لعدالة الله تعالى و حكمه في الأرض، و لكن لا بالقسر و الإجبار، بل بالتعليم و الاختيار، و هذا هو ما دل عليه صريح الآي القرآني الذي يبين معنى استخلاف الإنسان في الأرض تحت وصف العبودية المطلقة، قال تعالى: «هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِّنَ

الْأَرْضِ وَأَسْتَخْلَفَكُمْ فِيهَا»⁽²⁰⁾، فالاستعمار يقصد به إعمار الأرض و خدمتها لتحصيل المنافع و الرقي في مدارج

المدنية و الحضرة، و كذلك قوله تعالى: «وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً»⁽²¹⁾،

فهذه الآيات تضمنت تعريفاً بمهمة الإنسان الأساسية التي يجب النهوض بها، و هي عمارة الأرض بكافة معاني العمارة (المادية و العلمية و الاقتصادية)، شريطة أن تكون حافلة بمعاني العبودية و الإخلاص لله تعالى، و قد ربط المنهاج القرآني عمارة الإنسان للأرض بشرط التركيبة الأخلاقية و النفسية لأن شذوذات النفس و رعوناتها أول عائق في طريق الخلافة و الاستخلاف. و التركيبة النفسية تكون بالسبل التربوية و الرياضية، و امتثال المبادئ الإعتقادية و ممارسة النسك و العبادات التهذيبية و فضائل الأخلاق⁽²²⁾.

ثانياً - التعرف على مكونات الحضارة:

يكون ذلك بالتعرف الدقيق على المتغيرات التي تم جمعها في معادلة الحضارة، لأن جمعها لا يعني تحقيق الحضرة بالضرورة، و لهذا يقول الشيخ البوطي: «إن عملية إنشاء الحضارة، إنما هي في الحقيقة صورة مكبرة جداً، لأي تركيبة كيميائية يعكف على تحضيرها أي متخصص، من مجموعة مواد و عناصر معينة، فكما أن نجاح هذا التركيب فيما يراد أن يتحول إليه، متوقف على معرفة دقيقة لطبيعة تلك المواد و خصائصها و شواردها، فكذلك نجاح السعي إلى إنشاء الحضارة، متوقف على معرفة تامة بطبيعة موادها و عناصرها الأولية، معرفة لا يشوبها أي خطأ أو وهم»⁽²³⁾، فالتركيب متناسق و المثمر الذي يصل بالإنسان للحضارة و السعادة، هو الذي يتم عن طريق معرفة حقة بعناصر الحضارة الثلاث التي هي:

1* معرفة الإنسان لهويته، و أصله، و مآله.

2* إدراك أسرار الكون و نواميسه.

3* فقه معنى الحياة (الوقت)، وقيمتها، و مصدرها و عاقبتها⁽²⁴⁾.

ثالثا - إرادة التغيير:

يكون التغيير أولا بوجود رغبة عارمة في النفس الإنسانية، و هي الإرادة في التغيير و التبديل نحو الأحسن و الأفضل، و يرى البوطي أن هناك فرقا كبيرا بين الرغبة في التغيير، الذي هو جامع مشترك في التغيير، وبين الرغبة في سلوك سبل التغيير، و هذا هو ما ينقص العالم الإسلامي اليوم، ينقصهم السير في السبل التي يستطيعون بها أن يطوروا أنفسهم، و أن يغيروا مسارهم من الأسوأ إلى الأحسن و الأفضل. و هذه هي المسؤولية التي حملها الله الإنسان، فلإنسان مطلق الحرية أن يتحرك في التغيير نحو الإيجاب و نحو السلب، حسب إرادته و سعيه، و حسب قربه من الله أو بعده منها، و على قدر

ذلك يتحدد نوع التغيير، إذ العلاقة فيها طردية، و متى ما اشتعلت الرغبة في الإصلاح و تبديل الأوضاع جاء العون الإلهي في سبل التغيير و نتائجها. و من ذلك التطور المادي و الاقتصادي....⁽²⁵⁾

كما أن الإرادة، لا بد لها من أسباب تقدم، و توضحيات جسام، و كدح و سعي، و هذا يكون بالعمل و السعي، قال الله تعالى:

«وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ»⁽²⁶⁾. وهي سنة إلهية، فمتى ما جد الإنسان في عمله

في سبيل النهوض، تحقق له ما يسعى إليه مثابرا، سواء أكان مسلما أو كافرا، لأنه تماشى مع سنة كونية ف «ما من شخص أو أمة تبذل جهدا ابتغاء الوصول إلى ثمرة منه في الدنيا، إلا و في سنة الله و قضائه ما يستوجب وصول هذه الأمة أو هؤلاء الأشخاص

أيا كانوا إلى ثمرات جهودهم»⁽²⁷⁾ و هذا مصداقا لقوله تعالى: «نُوفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ»⁽²⁸⁾.

رابعا - العمل الجماعي المنسق :

يرى البوطي أن التجارب الفردية، حتى وإن كان لها صدى إلا أنه قريب المدى، هزيل الثمر، و لهذا لا بد للنهوض بالحضارة، أن يكون مشروعا جماعيا، يشترك فيه أكثر من طرف، المجتمع بجميع شرائحه، و الحكام و المسؤولين بكافة قطاعاتهم، «ذلك لأن أي تحرك نحو التحرر من التخلف و أسبابه، و الصعود في مراقي الحضارة، إنما يعتمد على مجهود جماعي متضافر(..) لذا فإن كل ما قد يوصف لهذا المجهود من علاجات و أسباب، يجب أن يناط بالهيئة الاجتماعية العامة، متمثلة في أغلبية الناس، على اختلاف فئاتهم و مستوياتهم»⁽²⁹⁾.

خامسا - القضاء على التجزؤ و أسبابه:

و يكون بذلك بأن نهرع إلى لملمة الأمة، و العمل على إعادة وحدتها، فكما أن الشتات سبب التخلف، فالوحدة هو علامة البدء في صعود سلم التقدم، و جمع الكلمة، و هذا يكون بملء الفراغ الرهيب الذي تعاني منه الأمة، وخدمة القيم و المبادئ، و المعتقدات بتريسيخها، و تعزيزها حتى تغدو جامعا مشتركا للأمة كلها، فمتى ما تحقق الجامع المشترك، أمكن الحوار في ظل الاختلاف، و الاجتماع لدرء الشقاق و النزاع.³⁰

الفرع الثالث - مرتكزات منهج التغيير عند البوطي

المتمعن لتحليلات البوطي لمسألة التغيير الحضاري، يجده يدرسه وهو قائم على ثلاث ركائز، هي:

أولا - ركيزة الوحي:

القرآن الكريم يحوي منهجا متكاملا لصناعة المسلم لحضارته، بما يتضمنه من « سبل تسخير الله الكون لعباده، و يبين لهم الطرق الكفيلة بجعل قيادة الدنيا في أيديهم، كما يظل يعرفهم على المنزقات السلوكية التي تعرضهم للضياع، و تقصيصهم من مستوى القيادة في عمارة الأرض، ثم يحذرهم من الاتجاه إليها، و يهددهم إن هم تساهلوا فانحرفوا عن الجادة بالوقوع في مغبتها و سوء عاقبتها » (31).

كما دلت السيرة النبوية في أقوال المصطفى و أفعاله، على المنهاج النبوي في البناء الحضاري، فقد كانت سيرته و مغازيه و فتوحه و معاهداته، و طريقة تعاملاته مع رعيته و مع الآخر بمثابة الدستور الذي تنتظم فيه أسرار صناعة الحضارة المشرقة، فقد بنى صلى الله عليه و سلم بعد هجرته في أرض المدينة المدنية و الحضارة التي جعلت المسلمين ينعمون بفيئها ردحا من الزمن، إلى أن ضيعوا مقومات تلك النهضة الحضارية، فأفلت حضارتهم لما اعترأها من أسباب و مسببات السقوط و التقهقر، عندما ضيعت البوصلة (المنهاج النبوي)، و في هذا السياق يقول الدكتور الطيب برغوث: « إن دراسة سيرة رسول الله صلى الله عليه و سلم و حركته، في مدة ثلاثة و عشرين عاما، هي في جوهرها دراسة في تشكيل حضارة، و بناء نموذج حياتي جديد (..) فلم يكتف عليه الصلاة و السلام بوضع مخططات التغيير، و برامجه، و مناهجه، و كفاءته، و موجباته، بل ساهم في البناء حتى وصل به إلى المرحلة التي أكمل فيها (مهمة البلاغ المبين) التي أمره بها الخالق عزوجل » (32).

ثانيا - ركيزة التاريخ:

التأمل في سنن الله في الحضارات المتعاقبة وفقه أسرار صعودها و هلاكها؛ كسنة التغيير، و سنة التدافع، و سنة النصر، فقوله تعالى: « وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ » (33)، وقوله أيضا: « يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا

إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ » (34)، و النصر الذي قصده الله عزوجل في كتابه هو النصر بمختلف

معانيه، كالنصر على أعداء الدين الذين يتربصون بالإسلام شرا، و النصر في مساعي التعاون الإنساني و ووحدة القوى الإسلامية، و نصر الإبداعات الحضارية، و تحقيق أسباب القوة و الغنى، وبلوغ أوج المعارف و العلوم.... و قد تحقق في تاريخنا الإسلامي

التغيير الاجتماعي و القيمي و التصوري، و انتشى المسلمون بالنصر الإلهي، و أقاموا صرح الحضارة الإسلامية ابتدأت من رقعة بدائية بسيطة في بوادي الجزيرة العربية، ثم تفرعت لتصبح حضارة لها أمجادها و صنائعها ردحا طويلا من الزمن. و هذا لما روعيت سنن الله في الكون، و فقهها الناس حق الفقه، و هب الإنسان إلى الانتصار لدين الله .، لا بالعصمة من الذنوب و لكن بالإخلاص في الإيمان بالله و جهاد النفس و المال، و تحكيم شرع الله، ثم بالتزكية المستمرة و التوبة النصوح من الأخطاء، لأن هذا النجاح تحقق بعد جهود شاقة و جهاد و توضيحات حسام في سبيل البناء الحضاري.

و لهذا فإن جل حالات الأفول التي تراجعت فيها الحضارة الإسلامية يراها البوطي، خاضعة لتجاذبات سنة النصر الطردية، فمتى ابتعد المسلمون عن شرع الله و الانتصار لدينه تقاذفتهم الأهواء و دبت فيهم عوامل الاستكانة و ما يتبعها من خمول فكري و غيره.. و كذلك الأمر في كافة شؤون الحياة الإنسانية. و قد بين القرآن عاقبة تعطيل النظر في هذه السنة التاريخية و الوظيفية حين قال: «**خَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا**»⁽³⁵⁾. فالخلف

بسكون اللام عكس الخلف بفتحها، التي تعني القرون الصالحة اللاحقة بسلفها ، أما الخلف بسكون اللام فتعني القرون الطالحة و الفاسدة من البشر الذين ضيعوا حضارتهم باستجماعهم لأسباب الفساد الذي صوره القرآن بأنه أمران: تضييع الصلاة، و الصلاة تعني الدين، و إتباع شهوات النفس و رغائبها، أي الحري وراء المغريات و الترف الزائد الذي يأتي على الحضارة من أساساتها، فلما اجتمع هذان السببان استحق المجتمع الإنساني الفاسد الانهيار الحضاري، و الهلاك الدنيوي و الأخروي⁽³⁶⁾.

و الخلاصة أن البوطي ينوه على دور التاريخ في فهم النفس البشرية، و حملها على التغيير، من خلال الاستعانة بالتاريخ و دراسته، دراسة جادة و موضوعية، نستعرض فيه وقائع الأمم و حياة الشعوب، و تجارب الدول..و نتطلع على نماذج الشقاء و السعادة. لنأخذ منها العبر و الفوائد⁽³⁷⁾.

ثالثا - ركيزة النفس:

و هذا أقرب ما يكون دعوة للعودة إلى المنهج الفطري، الذي يكون بالتزكية و التربية الروحية و التربية الإيمانية المترفعة عن باطن الإثم، و يكون التغيير ههنا لا يدور حول محور المادة، بل يدور حول محور النفس، و متى ما أصلح الإنسان حال نفسه، مكن الله له المادة و سخرها له، وجعل أنظمة الكون تسير وفق رغائبه. هذا إذا كان التغيير نابعا من الأعماق لا من السطح. فالعناية بالنفس هي السبيل الأول لعودة المسلمين إلى سابق حضارتهم، لأن العمل الإسلامي الذي يغفل عن تهذيب النفس من الكدورات و الأطماع الدنيوية، عمل يهتم بالشعارات التي في ظاهرها تخدم عودة المجتمع الإسلامي الأمثل، لكنها في حقيقتها لا تعبر عنه. لان كل سعي للنهوض بالأمة بمنهج إسلامي لا بد أن يبتدئ، محرك التغيير الذي هو النفس، فيهدبها، و يصقلها على القيم و الفضائل، ثم بعد أن يتأكد من ذلك يخوض في حركته و نشاطاته الإسلامية⁽³⁸⁾.

خاتمة:

من خلال العرض المختضب فيما سبق نتوصل إلى النتائج التالية:

1. التخلف عند البوطي أزمة متعددة الأجنحة ؛ أقواها و أعتاها ضراوة، هو الأخلاق و النفس، و لهذا فإن منهج التغيير الحضاري عنده هو منهج تربية و إصلاح، و عناية بالنفس.
2. التغيير عند البوطي له تصور منضبط، في مفهومه، و كيميائه، لكنه مقرون بمكون العرفان الصوفي، و التزكية الروحية، التي هي من صميم التوجه الفكري للبوطي.
3. يشدد البوطي في منهجه في التغيير الحضاري، على قضية التعرف على الذات الإنسانية و تحسس أماكن الخلل فيها، فمعرفة طبيعتها و تحليلها وفق سياقها التاريخي، يخفف من وطأة مشروع النهوض المتعب، و يذل السبيل له..

و كحوصلة لبحثنا ، ارتأينا أن نقبس كلام البوطي الجامع لما ابتغينا توضيحه في هذا المقال، لنختتم به مقالنا، حين يقول:

« سبيلنا إلى النهوض من وهدة التخلف يبدأ بتنمية هذه المعارف الانسانية بدءاً باللغة وحل مشكلاتها وترقية آدابها الأصلية وترسخ جذورها في الأدواق والنفوس، إلى التاريخ واستخراج صورة حقيقية (غير مشوهة) عن علاقة هذه الأمة بماضيها، مع تقويم ذلك الماضي بدون تبديل ولا تغيير، إلى الدراسات الشرعية والقانونية وبسط موازين العدالة في المجتمع، إلى الأخلاق والتربية وتلمس جذورها الإنسانية البعيدة. إلى تلك الدراسات الهامة المتعلقة بنواميس الكون و قوانينه وما وراء هذه النواميس والقوانين »⁽³⁹⁾.

قائمة المصادر و المراجع:

القرآن الكريم.

1. مالك بن نبي، شروط النهضة، ترجمة: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دار الفكر، دمشق، سوريا، د.ط، 1986م .
2. عبد العزيز بن مبارك برغوث، المنهج النبوي و التغيير الحضاري، سلسلة كتاب الأمة، العدد 43، الدوحة، قطر، 1995م.
3. أسوالد أشبنغلر، تدهور الحضارة الغربية، ترجمة: أحمد الشيباني، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، ج1
4. محمد سعيد رمضان البوطي، منهج الحضارة الإنسانية في القرآن، دار الفكر، دمشق، سوريا.
5. محمد سعيد رمضان البوطي، من المسؤول عن تخلف المسلمين، سلسلة أبحاث في القمة، العدد 8.
6. محمد سعيد رمضان البوطي، باطن الإثم، الخطر الأكبر في حياة المسلمين، سلسلة أبحاث في القمة، العدد 1.
7. محمد سعيد رمضان البوطي، من سنن الله في عباده، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط1، 2014م
8. محمد سعيد رمضان البوطي، التغيير مفهومه و طرائقه، ندوة بالإشتراك مع جودت سعيد، ندوات الفكر الإسلامي المعاصر، 1996م.

المقالات في المجلات و المواقع الإلكترونية:

1. أحمد الزقافي، التغيير مفهومه و مرجعياته، ندوة التغيير في فكر عبد السلام ياسين، 13 ديسمبر 2014م، yassine.org/ar/document/274.shtml
2. نبذة عن حياة الإمام الشهيد محمد سعيد رمضان البوطي، موقع نسيم الشام: www.naseemalsham.com

الهوامش:

- (1) البقرة، الآية: 143.
- (2) حتى أنه أُلّف في هذا العنوان (تأخر المسلمين) عدة مجددين وخيرة مفكري هذه الأمة، فكتب عنه الأمير شكيب أرسلان (لماذا تقدم الغرب و تأخر المسلمون؟)، والشيخ أبو الحسن الندوي (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟)، و الشيخ محمد سعيد رمضان البوطي (من المسؤول عن تخلف المسلمين؟)، و الشيخ محمد الغزالي (سر تأخر العرب و المسلمين)... و هذا يدل على انهماكهم في الازمة الحضارية التي تعاني منها أمة الإسلام، و العمل على إيقاظها من رقادها الثقيل.
- (3) الشيخ محمد سعيد رمضان البوطي، عالم سوري من أصول كردية، ولد عام 1929م بحزيرة بوطان (ابن عمر حاليا) في نقطة التلاقي بين سوريا و تركيا، نشأ في كنف والده العالم الفقيه الشافعي و العارف المتصوف "ملا رمضان"، كما درس على يد الشيخ حسن حبنكة الميداني، زاول دراسته الثانوية ثم الجامعية، و نال شهادة الدكتوراه في الشريعة الإسلامية من جامع الأزهر الشريف، تقلد عدة مناصب هامة في سوريا والعالم الإسلامي. تميز بموسوعية فريدة في زماننا، فهو أديب و فقيه و أصولي و متكلم و داعية... يعتبر قامة من القامات العلمية في العالم الإسلامي، له أزيد من خمسين كتابا في مختلف الفروع العلمية، أهمها: كبرى اليقينيات الكونية، فقه السيرة، شرح الحكم العطائية.. اما وفاته فكانت في خضم تدهور الأوضاع الأمنية في سوريا، فاعتيل الشيخ البوطي إثر تفجير انتحاري في جامع الإيمان حين كان الشيخ يلقي درسا في التفسير، و هذا يوم 21 مارس 2013م، رحمه الله تعالى. (المعلومات مأخوذة من موقع نسيم الشام:، جمع و إعداد الموقع، و بتعديل من الشيخ البوطي رحمه الله، www.naseemalsham.com
- (4) محمد سعيد رمضان البوطي، من المسؤول عن تخلف المسلمين، سلسلة أبحاث في القمة العدد 8، مقدمة الكتاب. ص2.
- (5) للبوطي تحفظ شديد من لفظة إصلاح الدين ، و موقف ناقد بشدة لحركة الإصلاح و النهضة التي نادى بها الأفغاني، فهو يعارض هذه المحاولة النهضوية التي خرمت نسيج الدين لا خدمته و أصلحته، و ما كان الدين يوما فاسدا حتى يحتاج إلى الإصلاح - على حد تعبير البوطي - ، للاستزادة ينظر كتب البوطي التي تناولت هذه القضية مثل، مقدمة كتابه فقه السيرة، و كتاب كبرى اليقينيات الكونية حين يتحدث عن المعجزة. و غيرها...
- (6) من المسؤول عن تخلف المسلمين، محمد سعيد رمضان البوطي، سلسلة أبحاث في القمة، ص 12 و ما بعدها.
- (7) لأن مصطلح التغيير لصيق بالعلوم الاجتماعية، و لهذا يدخل كل أنواع التغيير تحت معنى التغيير و يطلق عليها التغيير والإصلاح الاجتماعي، باعتبار المجتمع الذي هو جماعة من الأفراد هو العنصر الفاعل في التغيير الحضاري.
- (8) الرعد، الآية: 11.
- (9) الأنفال، الآية: 53.
- (10) محمد سعيد رمضان البوطي، من سنن الله في عباده، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط1، 2014م، ص159.
- (11) ينظر، المرجع نفسه، ص 163، 1162.
- (12) موقف البوطي من السياسة مشابه لموقف مالك بن نبي، حيث يرى أن العمل الدعوي الإصلاحي لا بد أن يكون بعيدا عن أحوال السياسة، لأنها ستلطخ و تفسد مسيرته. ينظر شروط النهضة، مالك بن نبي، شروط النهضة، ترجمة:عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، سوريا، د.ط، 1986م، ص30.
- (13) التغيير مفهومه و مرجعياته، أحمد الزقافي (ندوة التغيير في فكر عبد السلام ياسين)، 13 ديسمبر 2014م، متاحة على الرابط التالي: yassine.org/ar/document/274.shtml
- (14) محمد سعيد رمضان البوطي، منهج الحضارة الإنسانية في القرآن، دار الفكر، دمشق، سوريا، ص19.
- (15) المرجع نفسه، ص 20.
- (16) ينظر، أسوالد أشبنغلر، تدهور الحضارة الغربية، ترجمة: أحمد الشيباني، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، ج1، ص 12.
- (17) محمد سعيد رمضان البوطي، منهج الحضارة الإنسانية في القرآن، (مرجع سابق)، ص 12.
- (18) ينظر، المرجع السابق، ص 11.
- (19) ينظر، محمد سعيد رمضان البوطي، منهج الحضارة في القرآن، (مرجع سابق)، ص 18 - 21.
- (20) هود، الآية: 61.
- (21) البقرة، الآية : 30.

- (22) البوطي، منهج الحضارة الإنسانية في القرآن، ص 24 و ما بعدها.
- (23) المرجع نفسه، ص 33.
- (24) ينظر، المرجع نفسه، ص 35.
- (25) ينظر، محمد سعيد رمضان البوطي، و جودت سعيد، التغيير مفهومه و طرائقه. ندوات الفكر الإسلامي المعاصر 2، دار الفكر، دمشق، سوريا، ص 7.
- (26) التوبة: الآية: 105.
- (27) البوطي، من سنن الله في عبادته، (مرجع سابق)، ص 37.
- (28) هود: الآية 16.
- (29) البوطي، منهج الحضارة الإنسانية في القرآن، (مرجع سابق)، ص 160.
- ³⁰ المرجع نفسه، ص 162، 163.
- (31) المرجع السابق، ص 12.
- (32) برغوث عبد العزيز بن مبارك، المنهج النبوي في التغيير الحضاري، كتاب الأمة، العدد 43، الدوحة، قطر، 1995م، ص 40. لدوحة ، قطر، 1995م، ص 43.
- (33) الحج، الآية: 40.
- (34) محمد، الآية: 7.
- (35) مريم، الآية: 59.
- (36) ينظر، البوطي، من سنن الله في عبادته، ص 80 – 90.
- (37) البوطي، من المسؤول عن تأخر المسلمين، ص 19.
- (38) ينظر، محمد سعيد رمضان البوطي، باطن الغثم الخطر الأكبر في حياة المسلمين، سلسلة أبحاث في القمة، العدد 1، ص 6، 7.
- (39) محمد سعيد رمضان البوطي، منهج الحضارة الإنسانية (مرجع سابق)، ص 160.